الفصل الثالث

البَطلُ والرّجُل

[لأعطينّ الراية غداً . . .]

الرسول

ذات يوم ، والرسول بالمدينة ، نزل عليه الوحى بآية جديدة من القرآن ، وراح الرسول يتلوها على أصحابه وهم منصتون .

[« وَمَـا مَحمَّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَئِنْ مَّاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىَ أعْقابِكُم ؟ ؟ ومَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِين »] .

وأحدثت الآية فى أفئدة الصحابة ردَّ فعل قوياً ، وظن بعضهم أنها تنعى إليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام .

وصاح « على بن أبى طالب » :

[والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله .

[وَلئن مات أو قُتِل ، لأقَاتِلنَّ على

ما قاتل عليه حتى أموت » . . ! !

وطوال عمر « على » فى حياة الرسول وبعد وفاته ، وهذه الآية لا تبارح ذاكرته وإنها لتلحُّ على وجُدانه إلحاحاً دائباً وعجيباً . . ! !

فهو دائماً يذكرها فيتلوها ، ويُتْبع تلاوته لها بكلماته التى سمعناها الآن :

[والله ، لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله .

« وَلئنْ مات أو قُتل ، لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت] . .

* * *

ولكن لماذا اختار القتال سبيلاً للتعبير عن ولائه للدين . وإصراره على متابعة طريق الرسول ؟

لماذا لم يقل : (ولئن مات أو قتل لأواصلن السير على نهجه ، والاهتداء بسنتِه وهَديْه) ؟

إن طبيعة « المقاتل » تحتلُّ كل ذرَّة فى كيانه ، فإذا أعطى العهد على مواصلة السير تحت الراية التى يرفعها الرسول بيمينه ، فإنه يصوغ عهده من الكلمات التى تتسق مع طبيعته وتعبر عنها فى أمانة وصدق .

وأى كلمة تعبر عن طبيعة « المقاتل » سوى كلمة « سأقاتل » ؟

صحيح أن الآية نزلت فى معـركة دائرة ، وقتال مشبوب — فى غزوة أحد أو بعدها ، والمشركون يومئذ يُرجفون بأن الرسول قتل . . فنزلت الآية تسفّه أحلامهم ، وتشد عزم المسلمين ، وتخبرهم بأنه حتى لو مات الرسول

أو استشهد ؛ فإن رايته لن تسقط ، ودينه لن يتقهقر ،،وجنده لن يضعوا السلاح ! !

فلئن كانت طبيعة المناسبة ، تجعل الرَّد على تساؤل الآية : سنقاتل . . فإن « طبيعة المقاتل » هى التى جعلت كلمة « سأقاتل » شعار حياة بأسرها ، وليست شعار مناسبة بذاتها .

وهكذا رأينا « الإمام » طوال حياته المديدة والمجيدة ، لا يفتأ يذكر الآية الكريمة فيتلوها ، ثم يُعقب عليها بنشيده ذاك .

[. . . ولئنْ مَاتَ أو قُتل لأقاتلن على
ما قاتل عليه حتى أموت] ! ! !

* * *

قلنا إن « علياً » يحمل بين جنبيه « طبيعة المقاتل » وسجاياه .

فهل هذه منقبة توضع فى ميزان فضائله ، ومزاياه . . ؟

وبتعبير آخر : هل وجود طبيعة المقاتل فى إنسان أمر يشرّف ذلك الإنسان . . ؟ ؟

أما بالنسبة لابن أبى طالب ، فنَعم . .

إن كون طبيعة المقاتل فى أعماقه ؛ لِمَّا يزيده شرفاً ، ورفعة ، وكمالاً .

ذلك أن « طبيعة المقاتل » فيه قد بلغت من الاستقامة ، ومن العدالة ، ومن الشرف ، المدى الذى أفاءه عليها القرآن ، والرسول والإسلام .

فهى – عند الإمام – لا تمثل عدواناً . . ولا تشكل بهتاناً . . ولا تنطلق وقوداً لأغراضِ دنيا ، وأطماع نفس . .

وهى بهذا ، ولهذا ، تجاوز نفسها إلى أعلى مستويات البطولة .

كما أن « البطولة » عنده وظيفة تحمل أسمى تبعات الرجولة .

و « الرجولة » عنده ليست اندفاعاً عَرَمَرماً تزجيه طاقاته الجبارة إنما هى « التزام » يكاد يكون مُطلقاً لمنهج الرسول الذى آمن به . والدين الذى حمل رايته .

وهكذا نرى « البطل » و « الرجل » و « المسلم » يلتقون فى شخصية « الإمام على » أصدق لقاء .

أجَلْ . . لم ينفصم البطل ، عن الرجل ، عن المسلم ، فى حياة « على » أبداً . .

فإذا رأيناه يبارز خصماً مثلاً ، فليس البطل المتمكّن هو وحده الذى يبارز . . بل إن رجولة الرجل ، وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أُسلوب المبارزة وآدابها . . ! !

انظروا . .

فى غزوة أُحد . يخرج من صفوف المشركين أحد مُبارزيهم الأشداء هو : أبو سعد بن أبى طلحة ، وينادى « علياً » ليبارزه . .

ويخرج « على » إليه ويتلاقيان فى مبارزة ضارية حامية . .

ويتمكن منه سيف « على » بضربة تطرحه أرضاً . وهو يتلوى من الألم .

وبينما « على » يتهيأ ليجهز عليه بضربة قاضية ينحسر جلباب الرجل فتنكشف عورته . فيغمض « على » عينيه ، ويغضُّ بَصره ويثنى إليه سيفه ؛ ويعود إلى مكانه فى الصف . .

ويسأله المسلمون : لماذا لم تجهز عليه . . ؟

ويجيبهم :

[لقد استقبلنى بعورته ؛ فعطفَتْنى عنه الرّحِم) ! ! !

إن شرف المقاتل خُلقٌ لا ينساه « على » أمام النصر ، وأمجاد الظفر .

ولقد عُرف عنه ذلك دائماً ، فراح أعداؤه يلمسون منه هذا الوتَر كلما رأَوا المنايا تهوى عليهم من سيفه الوثيق ! !

* * *

إن الأبطال الأصلاء العظماء ، لا ينشدون النصر – مجرد النصر .

إنما هم ينشدون النصر عفاً ، شريفاً ، عادلاً . . فإذا لم يأتهم النصر مُوَشّى بهذه الفضائل ، فلا خفقت راياته ، ولا دقت طبوله ! !

وسنرى ونحن نتتبع مشاهد البطولة فى حياة الإمام ، كيف كان حرصه الشديد على « شرف المقاتل » آثر وأَبقى من كل غلبة ومن كل انتظار .

ومن المفارقات العجيبة لشخصيته ، أن « براعة المقاتل » فيه ، كانت تزلزل خصومه خوفاً وهَلَعاً . . فى حين « شرف المقاتل » فيه ، كان يملأ نفوسهم طمأنينة وأَمناً . . ! !

أجل – لطالما تحولت نقمته على أعدائه إلى رحمة بهم بسبب إيمانه الحق بأن القتال الشريف ، النبيل ، العادل ، هو وحده سبيل الرجال ، إذا اضطرُّوا لقتال . .

* * *

بعد أن تحقق له النصر فى موقعة الجمل ، وقبل أن تبدأ موقعة

« صفين » وكان لا يزال يرجو أن يفيء معاوية إلى الحق ؛ على الرغم من كل الشواهد التي كانت تنبئ بإصراره على موقفه وإعداده العريض للحرب والقتال . . يومئذ علم « الإمام » أن اثنين من كبار أنصاره يجهران بشتم معاوية ، ولعن أهل الشام هما : حُجر بن عدىّ وعمر بن الحمق ، فأرسل إليهما آمراً أن يكفا عن هذا الشتم وهذا اللّعن . . فقدما عليه ، وسألاه :

– يا أمير المؤمنين ؛ ألسنا على الحق ، وهم على الباطل . . ؟

أجابهم الإمام :

– بلى ، وربّ الكعبة .

قالوا :

فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم . . ؟

قال الإمام :

[كَرِهتُ لكم أن تكونوا شتّامين لعّانين . .

[ولكن قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأصْلحْ ذاتَ بَيْننا وبَينهم ، وأهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحقَّ من جَهله ، ويرعوى عن الغَيِّ من لجَّ به] . . ! !

إنه « شرف المقاتل » أيضاً . .

وإنها « البطولة » التي تُزجيها « الرجولة » .

و « الرجولة » التى صاغها الإسلام فى أحسن تقويم .

* * *

ولكن ، لماذا عَجِلنْا ، وتخطينا الزمن ، ورُحنا ننشد الأمثلة على بطولة الإمام من أُخريات أيامه . . ؟

ألا يَحسن بنا أن نستشرف هذه البطولة فى بداياتها الرائعة . . ؟

بلى . .فلنرجع مع الزمن إلى وراء . حيث الرسول فى « مكة » يتهيأ للهجرة إلى المدينة التى سبقه إليها أصحابه .

إن خُطَّة الهجرة كما رسمها الرسول ، كانت تتطلب أن يأخذ مكانه فى البيت رجل تَشغلُ حركتهُ داخل الدار أنظار المحاصرين لها من مشركى قريش ، وتخدعهم بعض الوقت عن مَخرَج الرسول عليه السلام ، حتى يكون وصاحبه أبو بكر قد جاوزا منطقة الخطر ، وخلفا وراءهما من متاهات الصحراء مسافةً تتشتَّت فيها مطاردة قريش إذا هى خرجت فى طلبهما . .

ولكن : ما مصير هذا الذى سيخلفُ الرسولَ فى داره ، ويخدع قريشاً كلها عن مَخرجه . . ؟

ما مصيره حين تكتشف قريش الحيلة ، وترى كَيدَها الذى عبّأت فيه كل قواها ، يرتد ، لا هزيمة ماحقه فحسب . . بل وسخريةً .

تُضحكُ منها ولْدانها ، وخزياً يجثم فوق جبينها . . ؟

إن مصيره مفروغ منه . .

إنه القتل ، إذا لم تجد قريش ما هو أشد من القتل تشفياً وفتكاً ! !

والحق أنها ستكون نهايةً مُوحشة . فالرجل الذى سيكتب عليه أن يحمل هذه التضحية ، لن يُقتل فحسب . . بل هو سيُقتل فى بلد مُوحش ، قد خلا من كل أصحابه الذين كانوا بالأمس يملأون فجاجه دَوّياً بالقرآن كدَوىٍّ النحل .

فى هذا البلد الموحش سيُقتل وحيداً . . دون أن يجد من إخوانه من يُشجعه ولو من بعيد بنظرة تثبيت . . أو يودٍّعه – ولو من بعيد أيضاً – بنظرة عطف ومحبة . . أو يتسلَّل فى جنح الظلام إلى قبره فيقف عليه مسلماً . . ! !

لا شىء من ذلك سيكون . .

ولا شىء من ذلك سيخفف من وَقع النهاية التى ستختارها قريش لِمن يمثل دور الرسول عليها حتى يخدعها عنه ، وحتى يردَّ كيدها العاتى تراباً فى تُراب ! !

فمِن أىٍّ طراز ، سيكون هذا الفدائى العظيم !

ومن أىٍّ ناحية ، سيجئ البطل . . ؟ !

إنه من بيت النبوة يجىء .

إنه سليل بنى هاشم . . وتلميذ محمد . .

إنه ربيب الوحى ، وسابق المسلمين . .

إنه « علىٌّ » يفاجئ قريشاً . . فَليَسُؤْ على يديه صباحُها . . كما ساء بخروج النبىّ مَمْساها ! ! !

* * *

على أنّ مهمة « على » رضى الله عنه ، لم تكن مقصورة على المبيت

مكان الرسول والمكر بقريش حتى يغادر الرسول مكة . . بل كان لها جانب آخر يتطلب نفس القدر من الفدائية والبذل والتضحية . . ذلك هو قيامه بردِّ الأمانات والودائع التى كان الرسول يحتفظ بها لذويها من أهل مكة .

لقد تلقَّى « على » من الرسول كل هذه الودائع وتلقى منه أسماء أصحابها . . وكان عليه أن يذهب إليهم داراً داراً . . وفرداً فرداً . . ويعطى كل إنسان أمانته ، دون أن ينيلَ قريشاً منه فرصةً تحولُ بينه وبين إنجاز مهمته كلها . .

ولقد قام البطل والرجل بالمهمة على خير وجه ، وحفظه الله ورعاه وصدق وعد الرسول له حين قال وهو يودِّعه :

[لن يَخْلصُ إليك شيء تكرهه منهم]

وبعد أيام ثلاثة ، قضاها الفتى الوثيق بمكة ، يرد الأمانات إلى ذويها ، ركب الصحراء مهاجراً إلى الله ورسوله . .

وحَده ، خرج مجتازاً نفس الطريق الذى خرجت عليه قوات قريش تطارد الرسول والصدِّيق ، وتطلبهما بكل جهد وثمن . .

وحدَه ، خرج « على » فى رباطة جأش تجلُّ عن النظير . . وفى إيمان مُطلق جعل عزمه يتألق مضاءً وتهلُّلاً . ! !

وبعد أيام وليال ، كان هناك فى « قباء » ينزل مع « الرسول » فى نفس الدار التى أُعدت له عليه السلام . دار كلثوم بن هِدم ، أخو بنى عمرو بن عوف .

وبعد أيام ، ينتقل مع الرسول إلى المدينة . . دار الهجرة . . وعاصمة العالم الجديد الذى جاء « محمد » يُنشئه ويبنيه على دعائم الإيمان ،

والحق ، والعدل ، والرحمة والسلام .

* * *

وتجىء « غزوة بدر » .

ويواجه الإسلام الوثنية فى أول لقاء مُسلَّح يَنْشِبُ بينهما .

ويُظهر على بن أبى طالب ، وعمه حمزة رضى الله عنهما من المقدرة والجلَد والبطولة ما يبهر الألباب . .

ثم تجىء « غزوة أُحد » حيث حشدت قريش كل بأسها وقوتها وخرجت لتثأر لقتلاها فى يوم بدر ، وتنضو عن نفسها عار الهزيمة الماحقة التى أصابتها ذلك اليوم المشهود . . ويملأ « على » أرض المعركة ببطولته وبضحاياه ويسقط اللواء من يد « مصعب بن عمير » .

يسقط بعد أن يبدى بطولة خارقة (١) .

ويدعو الرسول – علياً – ليحمل اللواء .

ويحمل اللواء بيد ، ويده الأخرى قابضة على سيفه « ذى الفقار » هذا السيف الوثيق الذى قال الرسول عنه وعن صاحبه :

[لا سَيفَ إلا ذو الفقار ولا فتىً إلا عَلِىّ] ! ! !

ولا يكاد « ابن أبى طالب » يحمل اللواء ويشرئبُّ فى يده عالياً ، عزيزاً ، خفاقاً حتى يبصره حامل لواء المشركين ، فيصيح : (ألاهل مِن مُبارز) ؟

ولا يجيبه من المسلمين أحد ؛ فقد كانوا فى شُغل عنه بالمعركة التى

---

(١) راجع « مصعب بن عمير » ، فى كتاب – رجال حول الرسول – للمؤلف .

بلغت أقصى عنفوانها ، وشِدَّتها ، وضراوتها .

وتتكسر السيوف على السيوف ، والنِّصال على النصال .

ويُرسل حامل لواء المشركين نَعيقه مرة أخرى فينادى : (ألستم تزعمون أن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار . . ؟ ألا فليخْرج إلىَّ أحدُكم) . .

ولم يطق « على » صبراً ، فصاح به : (أنا قادم إليك يا أبا سعد ابن أبى طلحة . . فابرز يا عدو الله إلىّ) . .

والتقيا بين الصفوف الملتحمة تحت وقع السيوف وتبارزا . . فاختلفا ضربتين . . ضربه « على » ضربة واحدة ، فسقط على الأرض يعالج مصرعه ومنيته . . وهَمَّ « على » أن يضربه الثانية ليجهز عليه فتكشفت عورته أمام « على » فاستحيا ، وغض بصره وانصرف عنه ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل .

وبعد انتهاء القتال تقدم النساء المسلمات يُداوين الجرحى .

ورأى الرسول – علياً – وسط مجموعة منهن تكاد تعْيينَ جراحه الكثيرة ، حتى قُلنَ لرسول الله حين رأَيْنَه :

– يا رسول الله : لا نعالج منه جُرحاً ، إلا انْفتَق جرح ! !

فاقترب الرسول من جسده المُثخن ، والشجاع ، وراح يُسْهم فى تضميده ويقول :

[إن رجلاً لقىَ هذا كُلَّه فى سبيل الله ، لقد أبلى وأَعْذَر] .

* * *

وانتهت معركة « أُحُد » بهزيمة المسلمين بعد أن حققوا على أرضها نصراً عظيماً . .

وكتُبُ السيرِ والتاريخ تجمع على أن الهزيمة لم تكن نتيجةً لتفوُّق المشركين فى قتالهم أو فى بلائهم . . إنما كانت نتيجة خطأ ارتكبه فريق من المؤمنين – أولئك هُم الرُّماة الذى وَكل إليهم الرسول مهمة حماية المؤخرة من فوق قمَّة الجبل ، وأمرهم ألاَّ يغادروا مواقعهم مهما يكن الأمر حتى يأمرهم – هو – بمغادرتها . . بيْدَ أنهم ما كادوا يبصرون قريشاً تنهزم . . وتنسحب قواتها من المعركة مخلفة أسلابها وغنائمها ، حتى غادروا مواقعهم . . . ونزلوا إلى أرض القتال يجمعون الغنائم والأسلاب . . .

هنالك ، جمع الجيش المنسحب فلوله ، وعاد حثيثاً إلى المسلمين وقد انكشفت مؤخرتهم ، وفاجأهم بهجوم مُباغتٍ وعنيد .

* * *

وهكذا تحوَّل النصر إلى هزيمة . .

ووعَى الدرس كله ، والعبرة جميعها حاملُ لواء المسلمين آنئذ « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه . .

لقد ازداد ساعتئذ علماً بما كان علمه من قبل : وهو أن دين الله لا ينبغى أن يكون طريقاً إلى دنيا . . وأن الذين يتقدمون ليحملوا كلمة الله ورايته ، يجب ألا يشغَلَهم عنهما أسلاب ، ولا غنائم ، ولا أطماع ، ولا مناصب . . فإن هم فعلوا وَكلَهم الله إلى أنفسهم ، وما أعجز الأنفس حين تفقد رعاية الله وتوفيقه . . ! !

حَذِق « على » هذا الدرس جيداً . . . كما حَذِقَه يومئذ أكثر الأصحاب .

وعاش « على » عمره كله لا ينساه ، فغدًا عندما تأتيه الخلافة فى فِتَن كقِطع الليل المظلم ، ثم عندما تُفرض عليه تلك الصدامات المروّعة مع معاوية ، ومع الخوارج ، لن ينسى درس « أُحد » أبداً . .

لن يضَع دين الله موضع مُساومَة ، ولا مُزايدة . .

كل مغريات السلطان ، ومباهج الدنيا ، لن تظفر منه بنظرة واحدة . .

ستظل كلتا عينيه على دين الله ، لا تتحولان عنه ، ولا تغمضان دونه . .

لن يشترى سُخط الله برضاء الدنيا بمن فيها . .

ولكنه يتقبل سخط الدنيا كلها ، والناس أجمعين بلحظة واحدة من رضاء الله رب العالمين . . ! !

* * *

والآن نُتابع « البطل » فى خَيبَر .

فأمام حصنها المنيع ارتـدَّت – أول يوم – كتيبة قوية يقودها أبو بكر الصديق . .

ثم ارتـدَّت – فى اليوم الثانى – كتيبة أخرى ، يقودها عمر بن الخطاب . .

لم يجزع الرسول ، فما كان هو بالجازع أبداً ، وإنما ألقى على الصفوف الحافلة بأصحابه وبجيشه نظرة متفائلة وقال :

[لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . يفتح الله على يديه] .

يقول « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه : [ما تمنيت الإمارة قط إلا ذلك اليوم ، رجاء أن أكون مَن يحبُّه الله ورسوله] . .

* * *

أصبح الصباح ، وأقبل المسلمون إلى حيث يلتقون برسولهم . . وكلهم شوق إلى معرفة الرجل الذى سيعطيه الرسول الراية ، والذى سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب .

واكتملت أعدادهم ، واستوتْ صفوفهم . . واشرأبّت الأعناق مُتمنِّية راجية .

وشقَّ السكونَ صوتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[أين على بن أبي طالب] ؟

كان « على » هناك وسط الزحام . .

لم يخطر بباله يومئذ أن يكون هو الرجل الذى وعد الرسولُ أصحابه ، وجعله بُشرَى الفتح القريب .

لم يخطر هذا الاختيار بباله لسبب يسير ، هو أنه فى ذلك اليوم كان يشكو رمداً فى عينيه ، لا يمكنه من العمل الصعب الذى تتطلبه مهمة ذلك اليوم المشهود .

ولكنه لبَّى نداء الرسول من فوره :

— ها أنذا ، يا رسول الله . .

وأشار الرسول إليه بيمينه ليتقدم منه ، فتقدم البطل . . ورأى الرسول ما بعينه من وجع واهتياج ، فبلَّل أنامله المضيئة بريقه الطهور ، ومَسَّ بها عين البطل . . ثم دعا بالراية فأمسكها ورفعها إلى أعلى . وهزَّها ثلاثاً ، ثم

غرسها فى يمين على ، وقال :

[خُذ هذه الراية ، فامضِ بها حتى
يفتح الله عليك] . . ! ! !

دقائق ، لعلها لا تجاوز خمساً . . ولكنها تمثل حياة كاملة لا مُنتهى لأبعادها ، ولا غاية لأمجادها ! !

* * *

حمل البطل الراية ، وتقدم كتيبته يهُرول هَرْولَة . . وأمام باب الحصن نادى :

[أنا على بن أبى طالب] .

أجل . . فإنه ليعرف تماماً ما لهذا الاسم فى أفئدة أعداء دينه من رهبة ، وما يثيره فيهم من فزع وخذلان . .

وتلقّى « على » ضربة قوية لم تُصبه بسوء ، لكنها أطارت تِرْسه من يده . .

ورأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن ، فصاح :

[والذى نفسى بيده ، لأذوقَنّ ماذاق
« حمزة » أو ليفتحن الله لى] . !

رأى سليل بنى هاشم نفسه ، ولا دِرْعَ معه . . فاندفع نحو باب من أبواب الحصن . . ولا يدرى الناس عندها ماذا حدث ؟

كل ما يذكرون أن علياً صاح « الله أكبر » ثم التفت نحوهم وباب الحصن بين يديه . . ! !

يقول أبو رافع مولى رسول الله ، وقد كان ضمن كتيبة على :

[لقد هممتُ أنا وسبعة معى أن نحرك
هذا الباب من مكانه على الأرض فما
استطعنا] . . ! !

وهجمت كتيبة الإسلام تحت قيادة بطلها « على » . . . وفى وقت وجيز ، كانت القوة المنتصرة تردد من شرفات الحصن الذى سقط بكل ما فيه ، هُتاف النصر . .

[الله أكبر خَرِبَتْ خَيْبَر] . .

وصدقت نبوءة الرسول التى قالها لابن عمه :

[خذ هذه الراية ، فامض بها حتى
يفتح الله عليك] . . ! !

أجلْ . . لقد فتح الله عليه ، ومَنحه النصر المرتَجَى .

* * *

والآن ، مع البطل فى يوم الخندق حيث هوجمت المدينة بأربعة وعشرين ألف مقاتل تحت قيادة أبى سفيان ، وعيَيْنَه بن حصن . .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حين علم بخروجهم وتحركهم صَوْب المدينة ، قد استجاب لرأى « سلمان الفارسى » بحفر خندق حولها . .

وحُفر الخندق ، وفوجئ به جيش الشرك .

وانطلق من معسكر قريش التى أضناها اقتحام الخندق ، نفر من مقاتليها على رأسهم عمرو بن عبد وُدّ – وتيمَّمُوا لأنفسهم ثغرة فى الخندق ينفذون منها ، وفعلاً وجدوا مكاناً ضيقاً تقحَّمتْه خيولهم .

ووقف هو ومن معه من فرسان قريش ، أمام المسلمين ، وصاح :
مَن يُبارز . . ؟

وفى مثل وَمْض البرق وجد أمامه البطل .

إذْ وقف « على » أمامه وجهاً لوجه .

وقال :

– يا عمرو ، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خُلَّتين إلا أخذتها منه .

فأجابه عمرو : أجَلْ . .

قال على :

– فإنى أدعوك إلى الله ، وإلى رسوله ، وإلى الإسلام .

قال عمرو : لا حاجة لى إلى ذلك .

قال على :

– إذن ، فأنا أدعوك إلى النزال .

قال عمرو : لِمَ يا ابن أخى ، فواللاّتِ ما أُحبُّ أن أقتلك .

قال على :

– لكنى والله أُحبُّ أن أقتلك . . ! !

فغضب عمرو ، وأخذته حمية الجاهلية ، واقتحم عن فرسه وعقره ، ثم هجم على « علىّ » الذى تلقَّاه بعنفوان أشدّ ، وخاضا معاً نِزالاً رهيباً ، لم تطل لحظاته حتى رفع « على » سيفه المنتصر ، فى حين كان خصمه عمرو بن عبدِ وُدّ مُجَنْدلاً على الأرض صريعاً .

وعاد « على » إلى صفوف المسلمين ، تستقبله تحيات شاعرهم :

نَصرَ الحجارة من سفاهةِ رأيه ونَصرْت ربَّ محمد بصواب
لا تحسَبُنَّ الله خاذِلَ دينـــه ورسوله ، يا معشرَ الأحزاب

* * *

وقبل أن نستطرد مع مشاهد بطولته الخارقة ، يحسن بنا أن نتذكر ما قلناه من قبل – ألا وهو أن بطولة « على » كانت تزدان بكل شرف الرجولة . ولم تكن قط فى خدمة هوًى أو زهو . إنما كانت فى خدمة تلك المبادئ العُلى التى هداه الله إليها والتى آمن بها « على » أوثق إيمـان .

من أجل هذا لا نعثر على شهد واحد من مشاهد بطولته ، يمثل عدواناً ، أو بهتاناً .

وبطولته على الرغم من شموخها واقتدارها ، كانت بطولةً مسالمة عاقلة ، عادلة . .

فى هذه البطولة ٱلتقت شدة البأس ولين الجانب لقاء مَوفقاً ! !

من أجل هذا نجد الرسول عليه السلام يندبُه فى مهامِّ الحرب والقتال لتلك التى تتطلب حظاً وافراً من ضبط النفس ولين الجانب . وفى هذا تزكية لبطولته وإطراء . .

* * *

فى ذلك اليوم المشهود – يوم فتح مكة – كان الزعيم الأنصارى « سعد بن عبادة » يحمل الراية على كتيبة كبيرة من المسلمين .

ولم تكد تتراءى له مشاهد مكة ، حتى استجاشته ذكريات عداء قريش للرسول ولصحبه . .

فصاح قائلاً وسط نشوة الظفر التى تستخفُّ الأحلام : (اليومَ يومُ

الملحَمة . . اليوم تُستحلُّ الكعبة) . .

قالوا : وسمعه بعض الصحابة فروَّعهم هذا النداء .

وسارع « عمر بن الخطاب » إلى النبي عليه السلام ونقل إليه كلمات سعد ، وقال معقِّباً عليها :

– يا رسول الله ، ما نأمَنُ أن يكون لسعد فى قريش صَوْلة .

وعلى الفورْ ، نادى الرسول « علياً » وقال له :

[أدْرك سعداً ، وخُذ الراية منه ؛
فكُن أنت الذى تدخل بها]

« علىّ » الذى شهد كل الأذى الذى صبَّته قريش على ابن عمه ورسوله . .

« علىّ » الذى يحمل طاقة زاخرة فوَّارة تحرّك الجبال . .

« على » ، وهذا يومه ، حيث يتوقّع منه بأسُ المقاتل ، وزهو المنتصر . . يختاره أعرف الناس به لمهمة قَهرِ الزَّهو ، ونسيان الثَّأر . مُهمة دخول مكة المفتوحة ، فى تواضُع وإخبات ، وسلام ! !

ومشهدٌ آخر ، يُعرفنا بجمال هذه البطولة ، وإنسانيتها ، وما كانت تتمتع به من أناة ، ومَعدَلة .

فبعد فتح مكة ، أرسل الرسول إلى مَنْ حولها مِن القبائل سرايا تدعوها إلى الله فى غير قتل لها ، أو حربٍ معها .

وكان « خالد بن الوليد » على رأس إحدى هذه السَّرايا . أمره الرسول أن يسير بأسفل « تِهامه » داعياً ، لا مقاتلاً . .

وعند قبيلة بنى خذيمة بن عامر ، تصرَّف أحد رجالها تصرُّفا تسرَّع

تجاهه « خالد » فأعمل فيهم السيف . .

ونمى الخبر إلى رسول الله ، فغضب وحزن ، وبرئ إلى الله مما صنع خالد بن الوليد ، ثم رأى – عليه السلام – أن يبادر بإرسال « رسول سلام » وكان « ابن أبى طالب » هو الرسول المختار .

دعاه رسول الله إليه ، وقال له :

[يا على . .

اخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك] .

وأعطاه الرسول من المال ما يكفى لِدَية القتلى ، وتعويض أهلهم عن كل خَسارة حَاقت بهم ، وقام « على » بالمهمة خير قيام .

وهكذا ، حيث تَضْرى البطولات ، وتستعلى الأناة والحكمة يكون « على » هو الرجل وهو البطل الذى يختاره الرسول ليقيم الميزان بالقسط ، ويمزج القصاص بالعدل ، والقوة بالرحمة ، ويضع الشجاعة تحت إمرة السَّداد والأناة والحكمة ! !

* * *

وإذا كان الفضل ما يشهد به الأعداء ، فلنستمع فى هذا المقام لشهادة « أبى سفيان » أيام شركه ووثنيته . .

فعندما نقضت قريش عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستخار النبى ربه فى الخروج إلى مكة لفتحها ، نمى الخبر إلى قريش فسُقِط فى يدها ، وأرسلت « أبا سفيان » إلى المدينة ، ليعتذر إلى الرسول ،

وليسأله الموافقة على المعاهدة التى كانت بينهما ، والتى أُبرمت يوم « الحُدَيْبية » .

ونزل « أبو سفيان » المدينة . . وقابل زعماء المسلمين راجياً أن يُزَكُّوا مهمته عند الرسول . . فكلهم رفض .

بل إن ابنته « أم حبيبة » وكانت إحدى زوجات النبى أبت أن تُجلسه على فراش رسول الله ، وكان مبسوطاً فى فناء حجرتها ساعة دخوله عليها فطَوته عنه . . ولما عاتبها فى صنيعها هذا أجابته قائلة :

[إنك مشرك . .

وفراش رسول الله لا يطؤه مشركون]

ولما عاد إلى « مكة » خائب المسعَى ، جلس يحدِّث قريشاً عن محاولته ، فقال فيما قال :

— « . . وجئتُ ابن أبى قحافة — يعنى أبا بكر — فلم أجد منه عوناً . .

« وجئت ابن الخطاب ، فوجدتُه أعْدَى العدُوّ . . لقد قال لى : أأنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ والله لو لم أجِدْ إلاَّ الذَّرَّ لجاهدتُكم به . .

« وجئت « عَلِياً » فوجدته ألْيَنَ القوم » . . ! !

أجَلْ . . فى هذه المناسبة بالذات ، حيث لا يتوقَّع من « على » كرم الله وجهه سوى بأس المقاتل ، وتَشفِّى صاحب الثأر ، نجد لين الجانب ورحمة الغالب يَسمانِ موقفه وتصرُّفه . . ! !

وبشهادة مَن . . ؟ بشهادة خصمه « أبى سفيان » زعيم قريش يومئذ وقائد جيوشها ، وحامل لواء وثنيتها ! !

* * *

ذلكم هو نوع البطولة التى أفاءتها مقادير « علىّ » عليه .

بطولة يقودها العقل لا العاطفة .

بطولة ، تحكمها أخلاقياتها النبيلة السَّامية ؛ فلا تستعلى على الرحمة . . ولا تزيغ عن الحق . . ولا تتنكَّب طريق الأناة والحكمة . .

وبهذه البطولة وقف « على » تحت راية الرسول فى حياته وبعد مماته . .

بهذه البطولة الشَّهمة العادلة ، قاتل المشركين ، فما تخلف عن غزاةٍ ولا عن مشهد أبداً . إلا غزاة واحدة أمره الرسول بعدم الخروج إليها ليكونَ خليفته فى المدينة على أهله .

ولما تململتْ روح البطل إزاء هذا التخلُّف أرضاه الرسول بقوله على ملأٍ من أصحابه .

[أما يُرضيك أن تكون مِنى بمنزلة هارون من موسى ، إلاَّ أنه لا نَبِىَّ بعدى] . . ! !

وبهذه البطولة الشهمة العادلة ، سيخوض قتاله مع « معاوية » ومع « الخوارج » .

وسيواجه الفتن الحالكة التى تَدَعُ الحليم حيران ، بأخلاقه الطاهرة ، قبل أن يواجهها بمقدرته القاهرة . .

لن يجد بأساً – أىَّ بأس – فى أنْ يخسَر ألف معركة ، ولكنه لن يسمح للظروف مهما تبلغ ضراوتها وشدتها أن تسلبه فضيلة واحدة من فضائل نفسه وفضائل دينه .

والحق أن معارك – الحروب الأهلية – التى اضطرَّ الإمام لخوضها

كانت أعظم مجَالى عظمته ، ورجولته ، ونُبله ! !

فإلى هناك لنرى بعض مشاهدها .

إن « مِنصَّة الأستاذية » قد رفُعت فوق المشقَّة والهول ، وقد علاها « البطل والمُعَلِّم » لِيُرِىَ الدنيا – على الطبيعة – كيف تعمل البطولات العظيمة فى نُبل ، واستقامة ، وشرف .